مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

ملف خاص عن الكتاب المدرسي

- علي صديقي
- حياة شتواني
- الحسين زاهدي
- أحمد الكبداني
- عبد الوهاب صديقي

مقالات

- مصطفى حجازي
- الغالي أحرشاو
- بنعيسى زغبوش
- عبد العزيز قريش
- العربي الهداني
- عبد الرحيم الضاقية
- جمال الحنصالي
- يونس البوتكمانتي
- رشيد بن بيه

العدد التاسع والأربعون - أكتوبر 2011

الكتاب المدرسي وإشكالية التربية على القيم

الحسين زاهدي
باحث متخصص في علوم التربية
مركز الإمام الغزالي لتكوين المعلمين والمعلمات - اكادير

عرف الكتاب المدرسي في منظومتنا التربوية تطورات بارزة ،إن على مستوى صناعته الفنية أو البيداغوجية. فبعدما كنا نقتصر على كتاب التلميذ،أصبح لدينا منذ سنوات خلت كتاب أو دليل الأستاذ;وفي الآونة الأخيرة استبدلنا الكتاب الوحيد بالكتب المتعددة;ولكل هذه التغيرات دلالاتها البيداغوجية.انتقلنا من المقررات الدراسية إلى المناهج التربوية

في محاولة لضبط الغايات والأهداف التربوية، وطرق تربية التلاميذ عليها بشكل يمكننا من التحكم في مخرجات المنظومة التربوية في انسجام تام مع الفلسفة التربوية للمجتمع المغربي التي تحدد مواصفات المواطن المراد تكوينه وإعداده للانخراط في الحياة العامة.

ومع ذلك يبقى السؤال حول فعالية الكتاب المدرسي لتحقيق وظيفته التربوية قائما.

هل استنفذ الكتاب المدرسي أغراضه؟

إذا سلمنا بان الكتاب المدرسي لم يعد مجرد سفر لمعرفة عالمة لا ينظمها تصور تربوي محدد،وأن تأليفه خرج من دائرة الاجتهادات الفردية، و أصبح يضم بين دفتيه المنهاج الدراسي بما هو مرجعية للكفايات والأهداف المراد تحقيقها من قبل مختلف المتعلمين والمتعلمات، تعبر بوضوح عن الصورة التي يراد لتلك الناشئة أن تصير عليها، فإنا بلا ريب سنتفق على أن هذا الكتاب لم يعد مجرد وسيلة تربوية كغيرها من المعينات الديداكتيكية، ولكنه المنهاج التربوي عينه، وان كل خلل يمسه يؤثر بالضرورة على العملية التربوية في المؤسسة التعليمية برمتها.

ولكن ألم تعد المعرفة اليوم في متناول الجميع وبأيسر الطرق ؟الم يتجاوز العالم ذلك الزمن الذي كانت فيه المدرسة بيت المعرفة الشعبي الذي يرتوي من ينابيعه الجميع؟

أليس من الخطأ الاقتصار على الكتاب المدرسي في الوقت الذي أصبح بمقدورنا اخذ المعلومة الجديدة من ابعد نقطة على وجه الأرض؟

كل هذه الأسئلة وغيرها تسائل الكتاب المدرسي في وظيفة نقل المعرفة وجيهة ومشروعة؛ لكن الذي ينبغي الانتباه إليه، هو أن المناهج التربوية المدرسية، لا تسعى فقط إلى تكوين علماء، ولا حتى مهندسين، اوتيكنوقراط، بقدر ما تهدف فضلا عن ذلك، بل وقبله كذلك إلى إعداد المواطن شخصيا، واجتماعيا لينخرط في عملية البناء الحضاري الشاملة لوطنه وأمته؛وهو مالا يمكن تحقيقه بالمعارف والمهارات فحسب، بل لابد فيه من التشبع بالقيم التي قام عليها المجتمع والتي تضمن تماسكه واستمراريته.

لا نعتقد كذلك أن هذه المهمة في زمن العولمة من السهولة بمكان،ذلك أن فاعلين مختلفين أصبحوا يشاركون المدرسة في تشكيل شخصية المتعلم دونما حاجة إلى موافقة أحد.متدخلين يتحدونها على مستوى طرق كيفيات ووتائر الاشتغال، كما على مضامين الخطاب التربوي نفسه.

أكدت الدراسات الميدانية التشخيصية[1] وجود بل وتفاقم المظاهر السلوكية المعبرة عن الاختلالات التي تعرفها منظومتنا التربوية في مستوى القيم، أو التربية على السلوك المدني، من قبيل استفحال ظواهر سلبية كالغش،و تعاطي المخدرات، والعنف بأشكاله المختلفة،وعدم احترام الممتلكات العمومية،والتقصير في أداء الواجب،وغيرها؛وهي كلها سلوكات تعبر بما لا يدع مجالا للشك عن القصور الذي يشكو منه فعلنا التربوي في مجال البناء الشخصي والاجتماعي للناشئة. فهل الكتاب المدرسي اليوم قادر على رفع التحدي وربح معركة التربية على القيم؟

التربية على القيم وسؤال الفعل التربوي المنهجي في الكتاب المدرسي

نصت كل الوثائق المرجعية للإصلاح التربوي الحالي على أهمية وإستراتيجية التربية على القيم. فالميثاق الوطني للتربية والتكوين أكد في قسمه المتعلق بالمبادئ الأساسية على المرتكزات الثابتة للمنظومة التربوية، التي هي القيم المستمدة من العقيدة الإسلامية،والتراث الحضاري والثقافي للبلاد؛كما خص الكتاب الأبيض موضوع القيم باهتمام بارز، فمنحه اهتماما متميزا جعل من التربية على القيم «اختيارا استراتيجيا لتطوير المنظومة التربوية»[2] من اجل تأهيل النشء للاندماج الايجابي والفعال في المحيط السوسيواقتصادي؛ وقد نصت على الموضوع ذاته كذلك جملة من المذكرات الوزارية، كالمذكرة رقم 177الصادرة في 25اكتوبر

2002في شأن تعميم منهاج التربية على حقوق الإنسان، والمذكرة رقم 42 الصادرة في 12ابريل 2001المتعلقة بموضوع تفعيل الأندية التربوية، والمذكرة رقم 15 الصادرة 1فبراير 2001 المتعلقة بمحاربة الرشوة، وسواها من المذكرات المتعلقة بالاحتفال بالأيام العالمية لحقوق الإنسان، والمرأة والطفل، وغيرها.

رغم كل هذه الترسانة المعتبرة من الأدبيات التربوية يبقى سؤال التربية على القيم في منظومتنا التربوية قائما ما لم تتم الإجابة عن سؤال :**كيف وبأية منهجية نربي الناشئة على القيم داخل مؤسساتنا التربوية؟**

الخطاب التربوي في وثائقنا الرسمية ومن ضمنها الكتاب المدرسي لازال موسوما بالعمومية،الأمر الذي أبقاه في مستوى إعلان النيات دون رسم خطة عملية للفعل التربوي الصفي.

من الصعوبة بمكان، إن لم نقل من المحال حصر الموضوع في مادة دراسية دون أخرى.

المؤسسة التربوية تتنفس القيم، وتعيش على إيقاعها.والقيم تتأثر إيجابا وسلبا بمحيطها بشكل يجعل من غير الممكن فصلها عنه.

والقيم نفسها تطرح إشكالا معقدا على مستوى المفهوم إن لم نقل المرجعية كذلك،فإذا تجاوزنا العموميات ودخلنا في التفاصيل واجهتنا أسئلة قوية تنصب على ماهية القيم نفسها، من قبيل، ما معنى الاستقامة؟ وما معنى الوسطية؟ وما المقصود بروح التسامح؟وما المراد بالانفتاح؟وغيرها من الأسئلة التي تلقي بظلالها على الممارسة التربوية الصفية نفسها، ومن تم على مواصفات المواطن الذي نسعى إلى تكوينه في زمن العولمة هذه.

تكتسي هذه الأسئلة أهميتها وتستمد مشروعيتها من افتقار الكتاب المدرسي إلى مرجعية قيم توضح القيم المراد تربية المتعلمين عليها عبر سنوات الدراسة المختلفة كما هو الشأن بالنسبة لمرجعية الكفايات.

تعتبر هذه المرجعية ضرورية لأنها هي الموجه الأساس لمؤلفي الكتاب المدرسي أثناء إعداد واختيارا لمضامين والأنشطة التربوية، خاصة حينما يتعلق الأمر بمواد ذات صلة مباشرة، وواضحة بموضوع القيم،كالتربية الإسلامية،والفلسفة،واللغات،والآداب،والتربية على المواطنة،تأخذ بعين الاعتبار تطور النماء الشخصي للمتعلم أثناء تدرجه في سنوات الأسلاك التعليمية.ولابد على مستوى آخر وتفاديا لأي تضارب قد يؤثر سلبا على شخصية المتعلم من وضع مؤشرات تدقق المراد بكل قيمة في كل مستوى أو مرحلة تعليمية معينة.

فالاستقامة،والصلاح،وحب العلم،والمعرفة،والإيمان بالله،والانفتاح،والتسامح،والمساواة، كلها عناوين جذابة ومغرية،ولكن تناولها خارج أية رؤية تربوية متفق عليها، ودون تحديد دقيق لمعاييرها، ومؤشرات تحققها لن يؤدي في آخر المطاف سوى إلى اللبس، والغموض والحيرة، والارتباك.

ما معايير الاستقامة في درس التربية الإسلامية؟وما علاقتها بخط الوسطية والاعتدال؟ وكيف ينظر إليها وتتم مقاربتها في درس الآداب العربية، والأجنبية، وفي الدرس الفلسفي؟ وما معايير الاستقامة؟ ومن هو الشخص المستقيم؟ وما هي المضامين، والأنشطة التربوية المختارة لجعل التلميذ يتمثل هذه القيمة المركزية في منهاجنا التربوي؟ هذه كلها أسئلة لم يجب عنها الكتاب المدرسي رغم كل ما عرفه من تجديد في الآونة الأخيرة. فحينما نكون أمام مفهوم يلفه الغموض ك"القيمة" يصبح من الضروري وضع معايير توضح المقصود منه، ف"...قد تكون نفس القيمة مرجعا لعدد كبير من معايير معينة، وقد يمثل معيار معين تطبيقا لعدة قيم متفرقة في آن واحد...فإن المعيار(على الموظف ألا يحابي أحدا)قد يتضمن في حالات معينة قيم المساواة، والاستقامة، والإنسانية، وغيرها...فالأمر(كن مستقيما)يبدو وكأنه معيار، لكن ما لم نعرف ماهي مواصفات السلوك المستقيم في الظروف المختلفة،فإنه ليس باستطاعتنا أن نحدد سلوكا معينا..."[3]. لا ينفرد أستاذ أية مادة بالتدخل في مجال التربية على القيم في فضاءات مؤسسات التربية والتكوين، لذلك وجب إعداد رؤية مشتركة ينطلق منها كل المتدخلين تفاديا لأية نتائج قد تكون سلبية على شخصية المتعلم.

من الضروري جدا أن يتعرض المنهاج التربوي للقيمة في مظاهرها الثلاث، المعرفي والوجداني، والسلوكي؛ وهي نفسها المظاهر الأساس لكل شخصية إنسانية؛[4]ليتمكن من انتقاء المضامين والأنشطة المناسبة لتربية المتعلمين عليها،وتوزيعها في المنهاج الدراسي حسب الأسلاك التعليمية،وبمراعاة الخصائص المميزة لكل مرحلة نمائية يمر منها المتعلم.

خاتمة:

إن موضوع التربية على القيم من الموضوعات الهامة جدا في منظومتنا التربوية لما لها من علاقة وطيدة ببناء شخصية المتعلم في بعدها النفسي، لما تمنحه إياه من توازن وقوة في الشخصية، وفي بعدها الاجتماعي لما لها من دور في اختياره لنوع العلاقات التي سيربطها مع الغير،وللاتجاهات التي سيتبناها تجاه المؤسسات المختلفة للمجتمع من أسرة، ومدرسة ونظام عام، وغيرها،خاصة في مرحلة المراهقة التي غالبا ما يعيد فيها الشخص قراءة نسقه القيمي ليعيد تشكيله من جديد على ضوء متطلبات المرحلة النمائية،وهو ما يصطلح عليه

في علم النفس الاجتماعي بالاتجاهات.لكل هذا نقول بأنه من غير المستساغ أن تأتي كتبنا المدرسية خالية من أية مرجعية للقيم، أو هندسة ديداكتيكية للتربية عليها .

إن النقاش الساخن الذي عرفته الساحة التربوية ووجد انعكاساته في الساحة السياسية والثقافية بشكل عام أثناء إعداد الكتاب البيض في جانبه المرتبط بتحديد ساعات، ومعاملات مواد التربية الإسلامية، والفلسفة، واللغة العربية،وموقعها في نظام التقويم في امتحانات البكالوريا جهويا، ووطنيا كان في عمقه نقاشا يعبر عن صراع بين منظومات مختلفة للقيم تختلف حول ما ينبغي أن يكون عليه ناشئتنا، ومجتمعنا في المستقبل المنظور، والبعيد على السواء،ومدعاة قوية للاهتمام بها عند إعداد الكتب المدرسية.

الهوامش

1 - رأي المجلس الأعلى للتعليم رقم2-07 بتاريخ23يوليوز2007

2 - المملكة المغربية،وزارة التربية الوطنية وتكوين الأطر والبحث العلمي،2009،الدليل البيداغوجي للتعليم الابتدائي،ط2،ص16،

3 - محمد بلفقيه،2007،العلوم الاجتماعية ومشكلة القيم تأصيل الصلة، دار نشر المعرفة،ص ص61-62.

4 - د.احمد اوزي،1993، المراهق والعلاقات المدرسية،منشورات مجلة علوم التربية،الرباط، ص 164.